

منذ الوهله الأولى وعت قريش أنها مقبلة على حرب وجود، ولكن ما الذي ستفعله ؟ فالحرب ليست على المستوى العسكري إنما هي حرب تتعلق بتغيير الأفكار، فـ المساواة غير واردة عندها، والتخلّي عن السيادة أمر مرعب، وإله ملموس أجدى نفعاً من إله محسوس. فـما الذي سيجدي نفعاً بعد أن صدّمت بـجدة المطروح، لقد تلفت حولها، واجتمع عليه قومها أكثر من مرة لـتدارك الموقف، فإن تهديد¹ حقيقياً وجه نحو سلطتهم، وكانت الفكرة في إدارة حوارات مع صاحب الرسالة، ومعرفة ما الذي يسعى إليه من وراء الخروج عن نسق الآباء إلى نسق آخر جديـ يـتمـثـلـ بـمـركـزـيـةـ الإـلهـ الواحدـ غـيرـ المرـئـيـ، وكانت قد فكرت مليـاً بـإـرـسـالـ شـخـصـ بـمـوـصـافـاتـ خـاصـةـ ليـطـلـعـ ويـفـهـمـ ماـ الـذـيـ يـقـولـهـ الـدـينـ الـجـدـيدـ، وـقـدـ وـقـعـ الـإـختـيـارـ عـلـىـ الـوـليـدـ بـنـ الـمـفـيرـ بـنـ عـبـدـ اللـهـ بـنـ عـمـرـ الـمـخـزـومـيـ¹، وـكـانـ هـذـاـ الـإـختـيـارـ مـدـرـوـسـاًـ بـشـكـلـ جـيـدـ فـالـفـوـزـ وـالـمـالـ وـكـبرـ السـنـ الـذـيـ يـمـنـحـ الـخـبـرـةـ وـالـدـرـيـاةـ وـالـمـعـرـفـةـ بـفـنـونـ الـقـوـلـ، كـانـ كـلـهـ مـوـاصـفـاتـ الـفـرـسـلـ وـكـانـ غـرـضـ قـرـيـشـ مـنـ ذـلـكـ هوـ عـدـمـ التـأـثـيرـ بـهـ فـهـوـ لـاـ يـحـتـاجـ إـلـىـ مـالـ أوـ سـلـطـةـ وـقـدـ خـبـرـ الـحـيـاةـ وـعـرـفـهـاـ، وـلـهـ إـطـلـاعـ وـاسـعـ عـلـىـ لـغـةـ الـعـرـبـ، وـفـنـونـ كـلـامـهـ، مـاـ يـجـعـلـهـ قـادـرـاًـ عـلـىـ فـهـمـ الـخـطـابـ الـمـوـجـهـ إـلـيـهـ، وـكـانـ قـرـيـشـ أـرـادـتـ أـنـ تـطـرـحـ فـكـرـةـ الـجـاهـ وـالـمـكـانـةـ وـلـسـانـ حـالـهـاـ يـقـولـ أـنـظـرـ يـاـ مـحـمـدـ مـنـ أـرـسـلـنـاـ إـلـيـكـ إـنـهـ سـيـدـ الـقـوـمـ، وـكـانـ سـادـاتـ الـقـوـمـ لـمـ يـتـأـثـرـوـ بـكـ هـؤـلـاءـ مـنـ يـحـوزـونـ شـرـفـ الـمـكـانـةـ وـكـثـرـ الـأـمـوـالـ أـنـاـ مـاـتـلـهـمـ، فـمـنـ أـتـبـاعـكـ ؟

وـكـانـ ثـمـةـ أـمـرـ آخـرـ يـقـعـ خـلـفـ الـإـختـيـارـ وـهـوـ لـاـ بـدـ مـنـ أـنـ يـكـوـنـ كـارـهـاـ لـلـدـعـوـةـ الـجـدـيـدةـ، وـلـاـ يـبـعـ كـرـهـهـ مـنـ عـدـمـ تـقـبـلـ لـلـأـفـكـارـ الـتـيـ تـحـمـلـهـاـ فـقـطـ، بـلـ رـبـماـ يـبـعـ مـنـ لـمـاـ لـمـ أـكـنـ أـنـاـ وـأـنـاـ سـيـدـهـاـ، فـيـتـحـدـ عـامـلـاـ الـكـرـهـ وـالـطـمـعـ دـاـخـلـ الـأـنـاـ، وـهـذـاـ يـعـنـيـ أـنـ الـقـضـيـةـ قـضـيـتـيـ وـالـوـجـودـ وـجـوـدـيـ لـذـاـ سـتـكـونـ الدـافـعـيـةـ فـيـ أـوـجـهاـ حـيـنـ تـكـوـنـ الذـاتـ مـحـرـكاـ لـهـ، وـيـؤـكـدـ هـذـاـ قـوـلـهـ: "أـيـنـذـلـ عـلـىـ مـحـمـدـ وـأـتـرـكـ وـأـنـاـ كـبـيرـ قـرـيـشـ وـسـيـدـهـاـ، وـبـيـترـكـ أـبـوـ مـسـعـودـ عـمـرـوـ بـنـ عـمـيرـ التـقـيـيـ سـيـدـ ثـقـيفـ، فـنـحنـ عـظـيـمـاـ الـقـرـيـتـيـنـ"¹، وـفـقـ الـرـجـلـ لـمـ يـخـفـرـ مـشـاعـرـهـ وـصـرـحـ بـأـحـقـيـتـهـ فـهـوـ أـحـدـ الـعـظـيـمـيـنـ، وـهـذـهـ الـعـظـمـةـ عـلـىـ وـفـقـ الـعـقـلـيـةـ الـعـرـبـيـةـ¹، كـانـ تـتـأـتـيـ مـنـ الـمـالـ وـشـرـفـ النـسـبـ فـهـمـاـ قـوـتـانـ تـمـحـانـ صـاحـبـهـمـ أـوـلـوـيـةـ التـصـدـيـ لـأـيـ مـوـضـوـعـ كـانـ، فـتـلـقـفـتـ قـرـيـشـ هـذـاـ التـصـرـيـحـ وـرـاتـ فـيـهـ كـلـ الـمـوـصـفـاتـ الـمـنـاسـبـ لـيـكـونـ هـوـ رـسـوـلـهـ إـذـ هـوـ يـمـلـكـ الـدـافـعـ وـمـاـ يـعـزـزـهـ، وـعـلـىـ وـفـقـ هـذـاـ أـرـسـلـتـ قـرـيـشـ حـكـيـمـهـاـ وـصـاحـبـهـاـ، لـيـفـهـمـ مـاـ يـقـالـ عـلـهـ يـكـوـنـ قـادـرـاـ عـلـىـ أـنـ يـجـدـ ثـفـرـةـ يـنـفـدـ مـنـهـاـ لـتـفـنـيـدـ مـاـ يـسـمـعـ وـيـصـرـحـ بـيـطـلـانـهـ .

تبـهـ الرـسـوـلـ مـحـمـدـ صـلـ اللـهـ عـلـيـهـ وـآلـهـ وـصـحبـهـ إـلـىـ قـدـومـ الـوـليـدـ بـنـ الـمـفـيـرـ فـأـعـادـ مـاـ كـانـ يـقـرـأـ مـنـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ، وـكـانـ الـقـصـدـ مـنـهـاـ بـيـانـ كـلـمـاتـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ مـنـ أـمـورـ عـدـةـ التـرـاـصـفـ الـلـغـوـيـ لـهـ وـالـذـيـ يـؤـدـيـ الـمـعـنـىـ بـصـورـةـ جـلـيـةـ لـاستـحـصـالـ التـائـيـرـ فـيـ الـمـتـلـقـيـ بـلـ إـنـ الـإـختـيـارـ لـلـمـقـرـوـءـ كـانـ مـدـرـوـسـاـ إـذـ كـانـ يـقـرـأـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ: "حـمـ تـنـزـيلـ"

الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول * لا إله إلا هو إليه المصير⁴. لقد أوضح الرسول محمد صل الله عليه وأله وصحبه مصدر ما يقرأ وارتباطه ، وكأنه يجيب على تسأل ذهني بيدهي والدعوة في بدايتها من أين تأتي بما تقرأ فهو من عند الله جل وعلا ، وهذا الإله يا وليد غافر الذنوب ويقبل الاعتذار فأعلن عنهم وهذا فرصتك ، وأن تتمسك بما أنت عليه فهو في المقابل شديد العقاب ، وهو بجانب ذلك سعته وحمله وغناه أكثر مما يستوعب عقلك على الصعيدين المعنوي والمادي ، ففي الغنى المادي أنت لا تملك ما يملك ، وما يملك يجعله غني عن عباده معنوياً ومادياً ، فليس ثمة شريك له في الملك ولا مصير لأحد خارج ما يقرره، ولا رجوع إلا إليه .

عاد الوليد ربما بشيء كان أقوى حتى من التأثير فيه، إذ سقط أحد أسباب الإختيار ولم يستطع الرجل مقاومة ما سمع وعاد مصدوماً وملامحه تدل على أن شيئاً جديداً يقع في عمق ما سمعه، لقد عاد بشهادة للتاريخ على صدق النبوة وصحة المصدر، فكيف عبر عما سمع لتفحص قوله: "والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً، ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن. والله إن له لحلواوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلىه لمתרم، وإن أسفله لمفقد. وإن ليعلو ولا يعلى عليه، وما يقول هذا بشر"⁴. و السؤال هنا ما الذي سمعه؟ فهو كلام يخالف الكلام؟

يبعد أن تداول اللغة شفاهياً رسم في أذهان العرب قوالب لغوية وطرقًا معينة لفهم الكلام ، في حين أن القرآن الكريم خالف ذاك الترسير وخرج عن قوالبهم ، فتحيروا في قياسه فهو قوالب شعرية أم صياغات نثرية ، وفي الحقيقة هو يباعد كلها شكلاً وتعبيرًا إذ ليس ما يقيده .

كما أنه أشار إلى سمعت لتبين ثبوتية المنهج القرآني في الخطاب فليس له علاقة بـ المكانة التي يمتلكها المتكلمي وإنما الخطاب يهتم بالعقل ومدى قدرته على إيضاح الحقائق وصولاً "إلى التغيير، فسماعه وهو مار يدل على صدق الموقف ، بل وصف بأن ما سمع يقع خارج حدود القدرة البشرية على الصياغة والرصاص ، وبالتالي قطع الوليد صلة القرآن الكريم بالرسول صل الله عليه وأله وصحبة من حيث الصياغة ، وبات يبحث له عن صلة أخرى (أهو من الجن؟)⁴ ، ولكنه رفض هذا أيضاً، ويبعد أنه كان منطبعاً على لغة الجن ، أو لنقل أنه يعرف شيئاً عنها ، وإلا كيف استطاع تخريجه منها ، وهكذا قطع صلة أخرى ، ولقد أكد القرآن الكريم وجود هذا النوع من المخلوقات بقوله تعالى : "قل أوحى إليّ أنة استمعت تقر من الجن فقلوا إتا سمعتنا قرأنا عجباً"⁴ ومثلما استعجب الوليد وانبهر بما سمع ، أصاب ذلك الجن فقد تعجبوا ، ويبعد الاتفاق واضحًا بين سمع البشر وسماع الجن فكلاهما وقف عاجزاً عن نسبة ما سمع ، وكلاهما يرى أن الآخر غير قادر على أن يأتي بمثل تلك المعاني وتلك الصياغات ، وإن الروح العامة التي ينبع منها لا يمكن أن تكون إنسية ولا جنية .

ولقد طرح الشعراء فكرة إلهام الجن لهم، حتى بذكر اللفظة بشكل صريح وها هو أمرؤ القيس يقول:⁸

تخيزني الجن أشعارها فما شئت من شعرهن اصطفيت

فيرسم لنا مدى طواعية الجن له وكأنه الامر الناهي عليها، فهي تعرض عليه وهو يتخيّز، ونسى الشاعر أن في المقابل الآخر كأنه صرخ بأن ما يقول من شعر ليس له، وهو بمثابة راو لا أكثر، والآخر أنها تمرر ما ت يريد عن طريقه، ولكن هذا التفسير يبقى مُنحناً عند عامة الناس لجوانب تتعلق بالمعرفة والإعتقاد، ويبقى أن ما يُريد الشاعر أباته هو تلك المكانة المترهلة له من ذلك. ويدّه الخصين بن الحمام في قوله:⁸

وقافية غير إنسية قرست من الشعر أمثالها

فإن ما يقول مقوضاً على شاكلة ما سمع، وإن ما سمعه كلام لا ينتمي إلى بني جنسه ، وكان يريد أن يقول لنا أنه ينسج على شاكلته، وبهذا فهو يطرح مقدراته على مُجراة ما هو أعلى، ويرسم له نوعاً من الخصوصية

وتستمر الفكرة عند الشعراء فهذا أبي النجم وهو من شعراء العصر الاموي يدعى بأن شيطانه ذكر وينماز بالقوة لتكون له الأفضلية على غيره في قول الشعر⁸ :

شيطانه أنتي وشيطاني ذكر

وهكذا يتضح له أن الشعراء أنفسهم روجوا لفكرة ارتباط ما يقولون بقوى غيبية، كما يوضح لنا معرفتهم بالجن وقدرتة الخفية، وقد تداولوا هذا في أشعارهم، وإن الفكرة ظلت راسخة عندهم ولم تقتصر على عصر معين

ويكمل الوليـد وصف ما سمع من الكلام بأن له حلاوة وهي رقة في نسجه، وزاده على ذلك الرونق واللذارة والعذوبة التي تؤثر في القلب وهذه طلاوته، وكلام بهذه النعوت بالتأكيد سيكون مما ترثاح إليه النفس وله قدرة على استعمالتها لذا فهو مثيرٌ لأنـ أسفلـهـ كـثـيرـ العـطـاءـ وـمـسـتـحـكـمـ فـهـوـ يـغـدـقـ،ـ وـبـعـدـ كـلـ مـاـ ذـكـرـ أـيـنـ سـتـكـونـ مـكـانـتـهـ؟ـ بـالـأـكـيدـ فـيـ أـعـلـىـ الـهـرـمـ،ـ إـذـ لـاـ يـمـكـنـ أـنـ يـكـونـ قـرـيـباـ لـغـيـرـهـ مـنـ الـكـلـامـ،ـ وـلـاـ خـبـيرـ بـلـغـةـ أـبـيـاءـ جـنـسـهـ وـدـخـلـ فـيـ أـذـنـيـهـ الـكـثـيرـ مـنـ الـكـلـامـ بـصـورـةـ عـامـةـ وـالـشـعـرـ بـشـكـلـ خـاصـ فـهـوـ لـمـ يـجـدـ مـاـ هـوـ مـسـتـنـفـرـ فـيـمـاـ سـمـعـ وـكـلـ لـفـظـ هـوـ فـيـ مـكـانـهـ لـاـ يـمـكـنـ التـبـدـيلـ وـلـاـ التـعـديـلـ عـلـيـهـ كـمـاـ كـانـواـ يـفـعـلـونـ مـعـ غـيـرـهـ مـنـ الـكـلـامـ وـلـاـ سـيـماـ الـشـعـرـ،ـ لـذـاـ جـزـمـ بـخـبرـتـهـ أـنـ مـاـ سـمـعـهـ كـانـ فـوـقـ كـلـامـ الـبـشـرـ.

ولم تكن قريش تتوقع أن تسمع هذا الكلام من الوليـد وهو يتنـي على القرآن الكريم، إذ إنـهـ فـيـ لـحـظـةـ ماـ كـانـ صـادـقاـ لـيـسـ فـيـ وـصـفـهـ مـنـ حـيـثـ هـوـ قـرـآنـ،ـ وإنـماـ فـيـ الـقـيـاسـ عـلـىـ أـسـاسـ مـاـ يـمـتـلـكـ مـنـ خـبـرـةـ ،ـ إـذـ لـمـ يـسـتـطـعـ إـنـكـارـ أـنـ مـاـ تـنـاـهـاـ إـلـىـ فـهـمـهـ كـانـ جـدـيدـ1ـ وـلـمـ يـسـبـقـ لـهـ أـنـ سـمـعـ بـمـتـلـهـ بـعـدـ أـنـ عـرـضـهـ عـلـىـ كـلـ مـاـ يـمـتـلـكـ مـنـ مـخـزـونـ مـعـرـفـيـ ،ـ إـمـاـ فـيـ حـكـمـهـ عـلـىـ مـاـ سـمـعـ أـنـهـ لـيـسـ مـنـ قـوـلـ الـبـشـرـ فـهـذـ يـضـعـنـاـ أـمـارـ عـدـةـ مـنـهـ جـدـيةـ النـصـ وـقـدـرـتـهـ الـبـلـاغـيـةـ وـالـإـعـجاـزـيـةـ عـلـىـ أـنـ يـجـعـلـ الـعـقـولـ وـالـنـفـوسـ تـقـفـ عـنـدـ حـائـرـةـ

متبرة، ثم نفهم من هذا التحير غياب النص السابق للقياس، ونفهم أنه ليس ثمة نصاً سابقاً بين يدي العرب يمكن القياس عليه كما عند غيرهم من الأمم. فمؤلفات اليونان القديمة لم تكن قد وصلت إلى أيديهم، ولم يكن لديهم منجز مجموع بين دفتين، ومحاكمة المكتوب الجديد أمر في غاية التعقيد في غياب ما هو مماثل أو مقارب.

واستناداً إلى ذلك طلب الوليد برهة من الزمن لأجل التفكير، فإن ثمة مازقاً حقيقةً دخل فيه، وإن كل خبرته في مجالات الحياة المختلفة التي خبرها بعمره الطويل لم تسعفه، وأبى أنفه أن ينصح بعجزه حقيقةً مع أنه صرخ به ضمناً عند وصفه حين سمع القرآن الكريم، وأخذ المهلة ليعيد النظر، لما زالت قريش ترى فيه رجالها المناسب لإنجاز المهمة، ولم يكن التأكيد عليه لإتمامها إلا لأن خروجه من دائرة الصراع يعني خروج الكثيرين معه فهو سيدبني مخزوم^٨.